تفسير سورة المدثر (74) : التاريخ : 19/12/1997 - الدرس : (1/ 8) - الآيات - [1-4] - الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم - لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً وأرنا الحق حقاً وارزقنا أتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

أيها الإخوة الكرام : مع الدرس الأول من سورة المدثر :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)
(سورة المدثر)

التحبب إلى الآخرين :

كأن الله سبحانه وتعالى - كما قلت في درسٍ سابق - حينما يخاطب بأسلوب اللغة العربية ، بأسلوب البلاغة العربية ، حينما تخاطب إنساناً بحالةٍ متلبِّسٍ بها فهذا من باب التَحَبُّب ، ومن باب الاستلطاف ، ومن باب الإيناس ، وقد ذكرت لكم تأكيداً لذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان سيدنا عليٌّ رضي الله عنه مُضَّجعاً على الأرض وقد تأثَّر بتراب الأرض ، قال : قُمْ يا أبا تُراب ، كان مخاصماً للسيدة فاطمة ، أراد النبي أن يتحبب إليه ، وأراد أن يتلطَّف به ، وأراد أن يؤنسه فقال : قُمْ يا أبا تُراب .

فحينما تخاطب إنساناً بحالةٍ متلبِّسٍ بها فهذا من باب التحبُب ، من باب الاستلطاف ، من باب الإيناس .

الدعوة إلى الله فرض عين :

النبي عليه الصلاة والسلام تدثَّر بثيابه فقال الله له :

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

أي انتهى وقت الراحة ، وقد سمعتم من قبل أن السيدة خديجة رضي الله عنها طَلَبَت من النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن جاءه الوحي من السماء أن يأخذ قسطاً من الراحة ، فقال لها : ((انتهى عهد النوم يا خديجة)) . قد يقول أحدكم : ما علاقتنا بهذا ؟ علاقتنا بهذا علاقةٌ متينة ، كل واحد منَّا مكلَّفٌ بعبادة الله ، كل واحدٍ منَّا مكلَّفٌ بالدعوة إلى الله ، كل واحدٍ منَّا مكلفٌ بنشر هذا الحق ، نشر الحق فرض عين ، طالبوني بالدليل :

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

(سورة يوسف : آية " 108 ")

فإن لم تدعُ إلى الله فأنت لست متبعاً لرسول الله ، وقد قال الله عزّ وجل :

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31)
(سورة آل عمران)

الجهاد الدعوي أعلى أنواع الجهاد :

مما يؤكِّد حُبَّك لله أن تتبع رسول الله ، ومن اتباع رسول الله أن تدعو إلى الله على بصيرة ، والإنسان الذي لا يجد في نفسه رغبةً في أن ينشر الحق ، أو أن يدعو إلى الله ، أو يشيع الفضيلة في المجتمع ؛ هذا إنسان يموت على ثُلْمةٍ من النِفاق ، لأنه كما تعلمون كلمة الجهاد يخطئ الكثيرون حينما يحصرونها بالجهاد القتالي ، جهاد النفس والهوى في بعض الأحاديث الصحيحة من أعلى أنواع الجهاد ، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى ، والجهاد الدعوي من أعلى أنواع الجهاد .

وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52)
(سورة الفرقان)

سمَّاه الله جهاداً كبيراً أن تتعَلَّمَ وتُعَلِّم ، أن تأخذ وتعطي ، أن تتلقى وتُلقي ، أن تُسهم في نشر الحق ، أن تسهم في تعريف الناس بربهم ، أن تسهم في حملهم على طاعته ، أن تُسهِمَ في إسعادهم بالقرب منهم ، هذه أكبر مهمة ، إنها صنعة الأنبياء .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)
(سورة فصلت)

إقناع الناس بالحق في حدود ما نعلم :

ALMARJANA ALFIKRIA

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

المؤمن ينبغي أن يُفكر ؛ كيف آخذ بيدِ أولادي ؟ كيف أقنع زوجتي بالحق ؟ كيف أقنع أولاد إخوتي ؟ كيف أقنع جيراني من حولي ؟ طبعاً الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم .

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))
(مسند أحمد : عن عبد الله بن عمرو)

وفي حدود من تعلم ؛ من حولك ، أقرباؤك ، جيرانك ، زملاؤك ، أقرب الناس إليك هؤلاء الذين أنت مكلفٌ بدعوتهم إلى الله ، أما إنسان يعيش عُمُراً مديداً لم يحدث نفسه بالجهاد الدعوي ولا مرة يموت على ثِلمةٍ من النفاق ، لأن الجهاد كما تعلمون وكما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام :

((ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))
(مسند أحمد : عن معاذ بن جبل)

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

تحبباً ، وإيناساً ، وتلطفاً .

مسؤوليتك تجاه الآخرين :

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

ويا أيها المؤمن هل فكَّرت في الدعوة إلى الله ؟ قالوا : الإنسان قد يقرأ كتاباً ، قد يقرأ قصةً ممتعةً يمضي بها وقتاً لطيفاً ، بعد أن تنتهي قراءتها يتثاءب وينام ، لكنك أحياناً تقرأ قصةً أو كتاباً ، كتاباً في العقيدة أو كتاباً إسلامياً تنتهي من قراءته فتبدأ متاعِبُك لأن هذا الكتاب وضعك أمام مسؤوليَّاتك ، وضعك أمام سرِّ وجودك وغاية وجودك ، وضعك أمام رسالةٌ مكلفٌ بحملها ، وضعك أمام مهمةٍ لا بدَّ من أن تؤَدِّيها ، فإذا قرأت قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

قل : ما علاقتي أنا بهذه الآية ؟ علاقتك بهذه الآية هل تعلَّمت وعَلَّمت ؟ هل قرأت القرآن وأقرأته ؟ هل تعلَّمت القرآن وعَلَّمته ؟ هل نقلت عن رسول الله حديثاً ؟ هل بلَّغت الناس حُكماً فقهياً ؟ هل رويت للناس قصةَ صحابيٍّ أحبَّ الله عزّ وجل وبذل في سبيله الغالي والرخيص ؟ ماذا فعلت ؟ نأكل ونشرب !!

للإنسان وجودان :

1 - وجود حيواني :

أيها الأخوة : - دققوا في هذا المعنى - الإنسان له وجود إنساني ، وله وجود حيواني ، فالإنسان حينما يكتفي بالطعام والشراب والتنفُّس والنوم ، وإنجاب الأولاد والتمتُّع بمباهج الحياة الدنيا ، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ ما حقق إلا وجوده الحيواني فقط ، قد تسأله : أيعقل أن يكون هذا ؟ ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال :

ALMARJANA ALFIKRIA

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

(سورة الفرقان)

هذا كلام الله عزّ وجل ، قال :

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ

(سورة الأعراف : آية " 176 ")

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً

(سورة الجمعة : آية " 5")

أبلغ من ذلك :

كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ

(سورة المنافقون : آية " 4 ")

الإنسان أحياناً يرى دابة تُفاجأ بحفرة تحيدُ عنها ، ترى ناراً مضطرمة فتبتعد عنها ، يوجد نوع من الإدراك ، أما الخشب المسندة هل تبتعد عن النيران ؟ الله عزّ وجل وصف هؤلاء :

كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً

(سورة الجمعة : آية " 5")

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ

(سورة الأعراف : آية " 176 ")

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

(سورة الفرقان)

هذا الوجود الحيواني ؛ أكل ، شرب ، تنفس ، زواج ، استمتاع وإنجاب أولاد ، عمل شاق ، نوم ، وجود حيواني .

2 - وجود إنساني :

أما الحاجة العُليا في الإنسان من هنا إلى فوق ؛ إدراك ، معرفة ، طلب العلم ، تعليم العلم ، تحقيق سر وجودك ، تأكيد ذاتك ، نشر الحق ، إشاعة الفضيلة بين الناس ، هذا وجود إنساني لا يليق بك أن تَهْبِطَ عن وجودك الإنساني إلى وجودٍ حيواني ، لا بدَّ من أن تحمل رسالة ، لا بدَّ من أن تنقل الحق ، لا بدَّ من أن تتعَلَّم وتُعَلِّم ، تتلقى وتُلقي ، أن تتعلم القرآن وأن تُعلمه ، لا بدَّ لك من عملٍ صالح .

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

(سورة الكهف)

هذا معنى قول الله عزّ وجل :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

تحبباً ، واستلطافاً ، وإيناساً..

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

خدمة الخلق عن طريق النصيحة و المودة :

فأكثر نشاط الإنسان يَتَمَحْوَر حول مصالحه ، أما أن يخرج الإنسان من بيته لطلب العلم ، لزيارة مريض ، لدعوة أخٍ إلى الله ، لخدمة شخص دون أن تكون له مصلحة لا من قريب ولا من بعيد إلا ابتغاء وجه الله ، هذا الذي أتمنّاه على كل مؤمن أن يخرج من ذاته إلى خدمة الخلق .

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

بالنصيحة ، بالمودة ، بالتلطُّف ، تزوره في بيته ، تقدِّم له هدية ، تعاونه ، تحل له مشكلة ثم تأخذ بيده إلى الله .

((يا علي وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم))

(سنن أبي داود عن سهل بن سعد)

((يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس)) .. ((.... خيرٌ لك من الدنيا وما فيها)) .

توجد شركات مبيعاتها السنوية أربعمائة مليار دولار .

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس ، خيرٌ لك من حُمُر النعم ، خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

أي أن هذا التوجيه من باب علاقتنا بالآية ، تسميه تطبيق عملي جيد ، تسميه مغزى جيد :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

نصيحة أقرب الناس إليك لأنك ستسأل عنهم :

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

(سورة الشعراء)

أقرب الناس إليك أولادك ، زوجتك ، إخوتك ، أخواتك ، أعمامك ، أخوالك ، جيرانك ، زملاؤك ، أصدقاؤك ، هؤلاء الذين هم حولك ، ألا تنطق بكلمة حق أمامهم ؟ ألا تأخذ بيدهم إلى الله ؟ ألا تشعر أن الله سيسألك عنهم ؟

((إن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة))

يقول عليه الصلاة والسلام :

((بينما أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) إِلَى قَوْلِهِ (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)))

(صحيح البخاري عن جابر عبد الله الأنصاري)

إيناساً له ، تحبباً إليه ، تقريباً له ، تلطفاً به .

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)

وجاء في صحيح مسلم :

((عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ الْمَعْنَى قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قَالَ يَحْيَى : فَقُلْتُ لَأَبِي سَلَمَةَ أَوِ اقْرَأَ ، فَقَالَ : سَأَلْتُ جَابِرًا أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ ؟ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا

الْمُدَّثِّرُ ، فَقُلْتُ : أَوِ اقْرَأْ ؟ فَقَالَ جَابِرٌ أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ شَهْرًا فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا ثُمَّ نُودِيتُ قَالَ : فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ (أي جبريل عليه السلام) فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ وَقَالا فِي حَدِيثِهِمَا : فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثِّرُونِي فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)))

(مسند أحمد)

الصفات التي نعت بها الكفار سيدنا محمد :

1 - مجنون :

شيءٌ آخر متعلقٌ بهذه الآية : اجتمع أبو لهبٍ وأبو سفيان والوليد بن المغيرة في أيَّام الحج وهم يتساءلون عن أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلفوا في الإخبار عنه فمن قائلٍ : مجنون ؟ وقد يسأل سائل كيف ربنا جلَّ جلاله أثبت في القرآن الذي يُتلى إلى يوم القيامة ، أثبت قول الكُفَّار فيه ؟

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2)

(سورة القلم)

لأنه قدوةٌ لنا صلى الله عليه وسلم ، الإنسان إذا دعا إلى الله أو عمل صالحاً الطرف الآخر لا يرضى عن ذلك ، فقد يتهم الطرف الآخر من دعا إلى الله أو من عمل صالحاً بتهمٍ هو منها بريء ، فتطيباً لقلب كل من دعا إلى الله إلى آخر الزمان أثبت الله قول الكفار في سيِّد الخلق وحبيب الحق ، قالوا : مجنون ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : شاعر ، وتَعْلَمُ العرب أن هذا كلَّه لا يجتمع في رجلٍ واحد ، فَسَمّوا محمداً باسمٍ واحد ، اتفق أهل الكفر والعصيان على توحيد النعت الذي يُنعَتُ به النبي أي مجنون ، شاعر ، كاهن .

هذه الصفات الثلاثة لا تجتمع في واحد فاتفقوا على أن ننعت محمداً بنعتٍ واحد يجتمعون عليه وتسميه العرب به .

2 - شاعر :

قام منهم رجل فقال : هو شاعر ، فقال الوليد بن المغيرة : كلامُه ما يشبه كلام الشعراء ، كلام محمدٍ شيء وكلام الشعراء شيءٌ آخر ،.

3 - كاهن :

قالوا : إذاً هو كاهن ، فقال : الكاهن يصدُقُ ويكذب وما كذب محمدٍ قط .

قام آخر وقال : مجنون ، فقال الوليد : المجنون يخنق الناس وما خَنَقَ محمدٌ أحدٌ قط ، وانصرف الوليد إلى بيته ، فقال خصومه : صبأ الوليد بن المغيرة أي إنه أسلم لأنه دافع عن النبي ، نفى عنه الشعر ، نفى عنه الكهانة ، نفى عنه الجنون .

4 - ساحر :

دخل أبو جهل على الوليد بن المغيرة و قال : ما لك يا أبا عبد شمس هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونك إيَّاه زعموا أنك قد صبأت ، فقال الوليد : " ما لي إلى ذلك حاجة ولكنني فكَّرت في محمدٍ فقلت : ما يكون من السحر ، فقيل : يفرق بين الأب وابنه ، وبين الأخ وأخيه ، وبين المرأة وزوجها ، فقلت : إنَّه ساحر ".

أي بعد ما لامس الحقيقة ، بعد أن قال الصواب وجد أنه سيفقد مكانته بين مجتمعه فعاد وانتكس وقال : إنه ساحر ، وصاحوا يقولون : إن محمداً ساحر ، ويرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته محزوناً مُتَأَلِّماً أشدَّ الألم تدثر بقطيفةٍ ثم نزل قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

النبي بشر ، لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيِّد البشر تألَّم هو رسول الله ، هو بين أن يكون مجنوناً ، أو كاهناً ، أو شاعراً ، ثم اتفقوا على أنه ساحر لأنه يفرق بين المرء وأهله ، كيف يُفَرِّق ؟ الرجل يؤمن وامرأته لا تؤمن ، تنشأ هوةٌ بينهما ، الأخ يسلم و الأخ الثاني لا يسلم .

إحساسك بالغربة بين عامة الناس علامة إيمانك :

وأنت الآن : إن لم تشعر بغربةٍ وأنت بين عامَّة الناس فأنت بعيدٌ عن الإيمان لأن :

((هذا الدين بدأ غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

أناسٌ صالحون في قوم سوءٍ كثير ، إحساسك بالغربة علامة إيمانك ، إن جلست بين أهل الدنيا ، بين من شغلتهم الدنيا ، شغلتهم أهواؤهم ، شغلتهم شهواتهم ، شغلتهم مصالحهم عن طلب العلم ، وعن معرفة الله ، وعن طاعة الله عزّ وجل ، هؤلاء ضاعوا فإن استأنست بهم فأنت مثلهم ، الإحساس بالغربة من علامة الإيمان ، والعلماء قالوا : " المؤمنون في غربةٍ مع غير المؤمنين ، والموَحِّدون في غربة مع عامَّة المؤمنين ، والسالكون إلى الله في غربةٍ مع غير السالكين " . كلَّما ارتقيت في الإيمان شعرت أن الذين حولك ليسوا على مستواك ، هذا نوعٌ من الغربة .

الشيء الذي أكَّدته لكم قبل قليل :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

صفات المؤمن في الدعوة إلى الله :

ملاطفة في الخطاب ، إيناس ، تَحَبُّب إلى الله عزّ وجل ، تكريم لهذا النبي وتذكير لمهمَّته الكبيرة .

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

لذلك أيها الإخوة : من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلَّها . اعمل لوجهٍ واحد يكفيك الهموم كلها . حينما ينشأ في نفسك رغبةٌ في نشر الحق هذا همٌ مقدَّس عندئذٍ الله جلَّ جلاله يوفِّقُك ويؤيّدك ، ويَدْعَمك ويطلق لسانك ، ويهبك الحكمة التي هي أثمن شيء .

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً

(سورة البقرة : آية " 329 ")

معنى قم فأنذر :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

أي أنذر أهل مكة وحذِّرهم العذاب إن لم يسلموا ، وأنذرهم أي أعلمهم أنك نبيٌّ من عند الله وأنَّك رسول الله ، وأنك تحمل رسالة ، وقال: أنذرهم أي ادعوهم إلى التوحيد لأنه المقصود بالدين ، وقال بعض العلماء : " قُم فأنذر ، أي قم فصلي و ائمر بالصلاة " .

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر :

بالمناسبة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة ، وهذه الأمة المحمَّدية التي استحقت أن تكون خير أمةٍ أخرجت للناس ، علَّة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمن لم يأمر بالمعروف ومن لم ينهَ عن المنكر فقد عطَّل فريضةً من أجلِّ الفرائض وعندئذٍ الحق يصغُر ويتقلَّص ويضعُف والباطل ينمو .

ضربت مرة مثلاً : لو أنَّك عم وزارتك بنت أخيك فلم يعجبك مظهرها ، ولا خروجها في هذه الثياب ، لو بقيت ساكتاً فأنت قصَّرت بواجبٍ دينيٍّ كبير ، أما لو نصحتها وبيَّنت لها صفة المرأة المؤمنة المسلمة ، وكيف أن الاحتشام يزيدها قرباً من الله عزّ وجل ، وكيف أن الأمر بيد الله ، وأن زواجها بيد الله ، وأنها إذا أطاعت الله عزّ وجل فقد فازت فوزاً عظيماً ، ربما تأتيك في المرة الثانية بثياب محتشمة ، وربما يغدو الاحتشام سلوكاً لها ثابتاً ، تكلم ، بين حكم الله .

أحياناً الإنسان يُدعى إلى طعام وعليه خمر ماذا يقول ؟ يقول لك : أنا معي القرحة لا أقدر أن أشرب الخمر ، يا أخي قل : أنا مسلم وهذا محرَّم عندنا ، أتستحي من دين الله عزّ وجل ؟ بيّن وضح استقيموا يُستقم بكم .

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

(سورة المدثر)

أي عظِّم ، ما هو التسبيح ؟ هو التنزيه ، وقال بعضهم : " هو التمجيد " . وقال بعضهم : " هو الخضوع " .

تَعظِيم الله و تَكبِيره :

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

أي إن الله أجلَّ وأكبر مما تصفون ، أجلَّ وأكبر أن يظلم العباد ، أجل وأكبر أن يكون مِثْلَ عباده ليس كمثله شيء ، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، أي عظم .

وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32)

(سورة الحج (

أي هو أكبر من أن يكون له صاحبةٌ وولد ، قالوا : الملائكة بنات الله ، هو أكبر من ذلك ، فكلما كَبَّرته كلما عرفته ، كلما اقتربت منه ، وقد سأل الصحابة الكرام بما نفتتح الصلاة ؟ فنزل قوله تعالى :

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

أي صِفْهُ بأنه أكبر ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى يقول :)) الله أكبر)) ومعنى الله أكبر أي أكبر من أي شيءٍ يشغلني عنه .

إذا الإنسان كان يعد مئة ألف ليرة وشعر أن هذه الحاجة مائلة فترك العد وجعلها مستقيمة ، هل يفعل هذا ؟ هذا شيء سخيف جداً أنَّ الحاجة مائلة ليست متوازية مع طرف الطاولة ، إنه يعد مالاً ، لا يوجد إنسان أثناء العد ينام ، إنه يقبض مبلغاً ، أو يدفع مبلغاً ، إنه في يقظة ، ولكن الإنسان إذا صلى وقال : الله أكبر يعني الله أكبر من أي شيءٍ يشغلني عنه ، من أي شيءٍ في الدنيا يشغلني عنه .

تَطبيق الله أكبر قولاً و فعلاً :

شيءٌ آخر : روي أن أبا سفيان قال يوم أحد : اعلُ هُبَل . أي يكبرون أصنامهم اعلُ هُبَل ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : قولوا : الله أعلى وأجل . وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع تكبير العبادات كُلِّها ؛ آذاناً ، وصلاةً ، وفي أكثر العبادات .

الآن عند ذبح الأضحية نقول : الله أكبر ، عند تقبيل الحجر الأسعد : الله أكبر . عند الآذان : الله أكبر . عند الصلاة : الله أكبر .

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

لكن ليس المقصود أن تقول : الله أكبر فقط . فأنا مرة في خطبة العيد قديماً ذكرت أن الإنسان إذا أطاع مخلوقاً وعصى خالقاً لو قال بلسانه الله أكبر ألف مرة هو في الحقيقة ما قالها ولا مرة لأنه رأى أن طاعة هذا المخلوق أكبر عنده من طاعة الخالق ، لو أن الإنسان في بيته استجاب لرغبات زوجته المُنْحَرفة فكسب المال الحرام إرضاءً لزوجته وعصى الواحد الديَّان ، لو قال في العيد ألف مرة الله أكبر ما قالها ولا مرة لأنه رأى أن إرضاء زوجته أكبر عنده من إرضاء الله ، بينما صحابيٌّ جليل طالبته امرأته بشيءٍ من الدنيا (الشيء المباح) فقال : "اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهُن على أهل الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أُضَحِّي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهنَّ من أجلك " . هذا قال الله أكبر .

لذلك المؤمن إذا دُعي إلى مخالفة ، إذا دعي إلى شيء لا يرضي الله يقول : الله أكبر ما عنده أكبر ، ما وعد به أولياءه من الجنة أكبر ، ما أوعد عباده من العذاب أكبر ، الله أكبر ، وهذا هو الدين وهذا هو الإيمان ، فالله أكبر أكثر العبادات تفتتح بهذه التكبيرة أي أعظم الله عزّ وجل .

من معاني الله أكبر :

أن الله أكبر مما تعرف :

بعضهم قال من معاني الله أكبر في قوله تعالى :

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

أن الله أكبر مما تعرف . مهما عرفت عن الله فهو أكبر ، مهما ارتقيت في سُلَّم الإيمان فهو أكبر ، مهما اتسعت رؤيتك للحقيقة فالله أكبر ، مهما شعرت أن الله عظيم فهو أعظم ، لذلك من أدق التفسيرات لقوله تعالى :

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ

(سورة محمد : آية " 19 ")

أيُّ ذنبٍ اقترفه النبي عليه الصلاة والسلام ؟ العلماء وجَّهوا هذه الآية بمعنى أن كل رؤيةٍ رآها النبي رأى فيها عظمة الله عزّ وجل ، الرؤية التي تليها هي أوسع وأشمل فكأنه يستحي من رؤيته السابقة وكأنها في حقِّه ذنب .

إنسان تعرف عنه الشيء الكثير ثم فوجئت أنه أكبر مما تعرف فإنك تستحي بمعرفتك المتواضعة ، وفي النهاية لا يعرف الله إلا الله ، النبي عليه الصلاة والسلام مع أنَّه سيِّد الخلق وحبيب الحق لم يعرف الله حق المعرفة ، فهو أعلى إنسان في معرفة الله لكن لأن الله لا يعرفه إلا الله ، إذاً الله أكبر ، أكبر مما أعرف ، مهما عرفت عن رحمته فهو أكبر ، مهما عرفت عن عدله فهو أكبر ، مهما عرفت عن لطفه فهو ألطف .

من معاني الثِياب في قوله " و ثِيابك فطهر " :

1 - العمل :

أيها الإخوة :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

هذه الآية مهمة جداً ، أول معنى من معاني الثياب : هو العمل ، الإنسان له ثوبٌ من عمله ، الآن في جلسة يذكر إنساناً (جزاه الله خيراً) يذكر إنساناً ثانياً أول كلمة : الله لا يوفقه ، معنى هذا أن عمله ثوب له ، فأول معنى من معاني :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي أن هذا العمل الذي هو لك كالثوب أنت متلبسٌ به ، يوجد مستقيم ويوجد منحرف ، يوجد رحيم ويوجد قاسي ، يوجد منصف ويوجد ظالم ، يوجد صادق ويوجد كاذب .

أول معنى : وعملك فأصلح ، عملك ثوبٌ لك ، يقول لك : هذا أمين الأمانة ثوب ، هذا مستقيم فإن الاستقامة ثوب ، هذا مُتْقِن الإتقان ثوب ، هذا مخلص الإخلاص ثوب ، هذا صادق الصدق ثوب ، هذا كاذب فإن الكذب ثوب ، هذا خائن الخيانة ثوب ، هذا غير عفيف فإن عدم العفة ثوب ، فثوبك أي عملك ، كلما ذُكِرت ذُكِرَ معك عملك وكأنه ثوبٌ لك يحيط بك .

استعمالات كلمة الثوب في اللغة العربية :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي أصلح عملك ، يوجد تقصير ، يوجد انحراف ، يوجد كذب ، يوجد اغتصاب لأموال الآخرين ، يوجد احتيال ، يوجد تدجيل ، يوجد ابتزاز ، عملك ثوبك الذي تَلْبَسُهُ دائماً ولا تستطيع أن تخلعه أبداً .

لو أن إنساناً فُضِح ، هذه الفضيحة سَرَت بين الناس ، أصبحت له كالثوب متى ذُكِر تذكر فضيحته ، متى تحرَّك يُشار إليه بأنه فعل كذا وكذا ، والآن الفضائح توجد معها أفلام ، يوجد تصوير ، لا يستطيع أن يهرب من هذا الثوب الذي لبسه ، هذا المعنى الأول (وعملك فأصلح).

لذلك العرب تقول : فلان خبيث الثياب إذا كان عمله سيئ ، وفلان طاهر الثياب إذا كان عمله صالحاً وهذا من استعمالات كلمة الثوب في اللغة العربية ، لأن القرآن الكريم نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين .

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)

(سورة الزخرف)

أساليب العرب قبل الإسلام الثوب هو العمل ، فلان طاهر الثوب أي عفيف ، فلان خبيث الثوب أي عمله سيئ ، والحقيقة الإنسان القوي أحياناً أو الغني يّمدح في وجهه فقط ، العبرة لا ما يّقال أمامك بل ما يّقال في غيبتك ، أنت تساوي لا ما يّقال في حضرتك بل ما يُقال في غيبتك ، فإذا غبت عن الناس ماذا يّقال عنك ؟ جزاه الله خيراً ، والله صادق ، والله كريم ، والله محسن ، مستقيم ، ورع ، والإنسان المنحرف إذا تكلَّم الناس عنه في غيبته نهشوا عرضه وأطلقوا لألسنتهم العنان .

2 - القلب :

المعنى الثاني :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي قلبك فطهِّر لأن العمل أساسه القلب ، الذي قلبه طاهر عمله طاهر ، الذي قلبه فيه حقد وفيه حسد وفيه شهوة دنيَّة عمله سيئ ، فهذا تحصيل حاصل ، يعني ثوبك أي قلبك الذي منه يصدر عملك ، العمل سلوك وقبل السلوك إرادة وقبل الإرادة تصوُّر وقبل التصور عزم القلب ، يوجد في القلب تساهل فيصبح الإنسان غير مستقيم ، يوجد في القلب كبر فسلوكه فيه كبر ، يوجد في القلب حقد فإن سلوكه فيه حقد ، يوجد في القلب ظلم إذاً هو يظلم ، فالمعنى الثاني :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي قلبك فطهر .

((عبدي طَهَّرت منظر الخلق سنين أفلا طهَّرت منظري ساعة ؟ ((

(ورد في الأثر)

طهرت منظر الخلق أي الإنسان يطلي البناء ، يرتدي ثياباً جميلة ، ينظف مركبته لأنها منظر الخلق ، أفلا ينبغي أن يطهر قلبه لأنه منظر الرب ؟

((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) .

(متفق عليه عن أبي هريرة)

3 - النفس :

المعنى الثالث : النفس ، ذات الإنسان ، يوجد نفس طاهرة ، يوجد نفس خبيثة .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)

(سورة المائدة)

من هي ذات الصدور ؟ نفسك التي بين جنبيك ، هذا المعنى الثالث من :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي طهر عملك ، وطهر قلبك ، وطهِّر نفسك ، والنفس ذات الإنسان ، قالوا : طَهِّرها من الإثم والعدوان ، طَهِّرها من المعاصي والآثام ، طهرها من الغدر بالخُلاَّن ، أي طَهِّر نفسك من كل شيْ لا يرضي الله عزّ وجل .

4 - الجسم :

المعنى الرابع :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي وجسمك فطهِّر عن المعاصي الظاهرة ، العين تزني وزناها النظر ، توجد عين طاهرة أي تغض عن محارم الله ، توجد أذن طاهرة لا تستمع إلى الغناء ، يوجد لسان طاهر يذكر الله دائماً ، توجد يد طاهرة إنها تعطي ، توجد رجل طاهرة إنها تحملك إلى المسجد ؛ أما الرجل التي تقود صاحبها إلى ملهى هذه رجلٌ نجسة ، واليد التي يبطش بها الإنسان ظلماً يدٌ نجسة ، والعين التي يتَّبع بها عورات المسلمين عينٌ نجسة ، والأذن التي يستمع بها إلى الغيبة والنميمة وقول الزور والبهتان وفضائح الناس ويستمع بها إلى الغناء أذنٌ نجسة ، واللسان الذي يذكر عورات الناس لسانٌ نجس ، إذاً :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي طَهِّر جسمك من المعاصي الظاهرة .

5 - الأهل :

المعنى الخامس لقوله تعالى :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي أهلك فطَهِّرهم لأن أهل الإنسان كالثياب له استنادا لقوله تعالى:

هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ

(سورة البقرة : آية " 187 ")

والله سبحانه وتعالى يؤكِّد هذا المعنى في آيةٍ أخرى ، يقول الله عزّ وجل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً

(سورة التحريم : آية " 6 ")

أي زوجتك ألصق الناس بك ، أولادك ، بناتك ، إخوتك ، أخواتك هؤلاء أهلك ، هؤلاء عورتك ، طَهِّرهم ، أي اهتم بهم ، دقق في صلاتهم ، في طاعتهم ، في حجابهم ، في دينهم ، في علمهم ..

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

هم ثيابك ، هذا المعنى المتعلِّق بالأهل وهو المعنى الخامس .

6 - الخُلُق :

والمعنى السادس : الثياب هي الخُلُق ، يعني يبدو منك أخلاقك ، أخلاقك هي كالثياب ، أنت إن نظرت إلى إنسان ماذا ترى ؟ ترى ثيابه ، وأخلاقه ثيابه .

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي طهِّر أخلاقك من الدَنَس ، من الكذب ، من الغيبة ، من النميمة ، من الحقد ، من الكِبر ، هذا أيضاً من معاني :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي أن خلق الإنسان مُشْتَمِلٌ على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه .

7 - الدين :

ويوجد معنى سابع :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي دينك فطهر :

((ابن عمر ، دينك دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا)) .

(أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر)

دين عقيدتك ، هل بحثت عن عقيدةٍ صحيحة أم أن في ذهنك تعشعش الأوهام والأباطيل والخرافات ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة ، والقصص التالفة ، والخرافات ، والكرامات التي لا تُصدَّق ، ثيابك دينك ، هل استقامت عقيدتك ؟ هل قُمْتَ بواجباتك الدينية ؟ هل عبدت الله حق العبادة ؟ هل اتقيت الله حق التقوى ؟ أن تذكره فلا تنساه ، أن تشكره فلا تكفره ، أن تطيعه فلا تعصيه ، هذا المعنى السابع .

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي دينك فطهِّر ، هذا يؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم :

((رأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدي ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر ابن الخطاب وعليه إزارٌ يجرّه (أي ثيابه سابغة) فقلت يا رسول الله : فما أوَّلت ذلك ، قال : الدين))

(متفق عليه عن أبي سعيد الخدري)

الثوب هو الدين ، يوجد إنسان ثوبه إلى خصره ، يوجد إنسان ثوبه إلى أثدائه ، يوجد إنسان ثوبه إلى رقبته ، رأى عمراً يرتدي ثوباً سابغاً يجرُّه ، قال : ما أولت ذلك ؟ قال : الدين ، إذاً استنباطاً من هذا الحديث الشريف :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

أي دينك فأصلح ، اللهمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا .

8 - الثياب :

بقي المعنى الثامن :

ALMARJANA ALFIKRIA

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

المعنى المتبادر للثياب ، أي إن هذه الثياب التي ترتديها يجب أن تكون طاهرة ، لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

((لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاء))

(صحيح البخاري : عن ابن عمر)

((مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(صحيح البخاري :عن عبد الله عن أبيه)

سيدنا الصديق قال : ((يا رسول الله إن أحد شِقَّي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه ، فقال عليه الصلاة والسلام : لست ممن يصنعه خيلاء)) .

(متفق عليه عن سالم بن عبد الله)

أنت فوق ذلك يا أبا بكر .

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

لا تجعلها مع الطريق ، أو اغسلها من النجاسة وهو ظاهرٌ ، لا تصلي في ثوبٍ غير طاهر ، هذا معنى الثياب الطاهرة ، أي يجب أن ترتدي ثياباً نظيفة ، فإما أن تجعلها طاهرة بأن لا تكون سابغةً إلى درجة أنَّك تنظِّف بها الطريق ، فالثوب المعتدل أنقى وأقرب إلى الله وأتقى .

علامة حبك لله إتباعك لرسوله :

شيءٌ أخير في هذه الآية :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

الثوب الأهل ، والثوب القلب ، والثوب النفس ، والثوب العمل ، والثوب الثياب التي أمرنا أن نطهِّرها دائماً ، والقرآن كما قال الإمام عليٌّ بن أبا طالب رضي الله عنه : " حمَّال أوجه " .

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109)
(سورة الكهف)

وهذه الآية الأولى :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

اسأل نفسك هذا السؤال : هل ساهمت في حياتك بهداية إنسانٍ واحد ؟ هل فكَّرت أن تنقل حقيقةً للآخرين ؟ هل أردت أن تصطحب أحداً إلى بيت الله ؟ هل دخل إلى قلبك رغبةٌ حميمةٌ أن تنقذ إنساناً من الكفر ، من الضياع ، من المعصية ؟ هذا ما نستفيد منه من هذه الآية :

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

طبعاً في حدود ما تعلم وفي حدود من تعلم ، وهذه الدعوة إلى الله على هذين المستويين فرض عينٍ على كل مسلم ، ومن قصَّر بهذا فهو ليس متبعاً لرسول الله ، ومن علامة حبك لله إتباعك لرسول الله ، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع هذه الآيات :

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

(سورة المدثر)

والحمد لله رب العالمين